التربية والإناسة في فكر إغناطيوس الرابع[١]

جورج ن. نحّاس

مفهوم التربية وترجمته عند إغناطيوس الرابع

يُدْرِك كلّ من تابع مسيرة حياة المثلّث الرحمات البطريرك إغناطيوس تلازم خدمته الكنسيّة بالهاجس التربويّ الذي ترعرع عليه على يديّ أبيه. شُغِف شخصيًا بالعلم والثقافة، فأسس مدرسة في بيروت، وأسّس معهد اللاهوت في البلمند، وجدّد المدارس في دمشق، وأطلق كبطريرك جامعة البلمند. طبعًا يدلّ ذلك على قناعة راسخة عنده بأن الاهتمام بالتربية هو جزء من الهمّ الكنسيّ الرعائيّ وليس دخيلاً عليه. لكن يخطئ من يعتبر أن هذه القناعة النظريّة هي التي طغت على عمله. فقد كان أوّل من وضع سلسلة للتعليم الدينيّ بشكل جديد تغطي كلّ الصفوف وتناسب أعمارها. كما كان هو وراء أول تجربة أنطاكيّة تقارب بشكل حديث وضع أجزاء من الكتاب المقدّس بشكل مصوّر ليسهّل على الأطفال قراءته. والحقيقة أن أمر التربية عند البطريرك الراحل تعدّى المؤسّسات والكتب رغم اهتمامه المستمرّ بها، ولطالما طالبنا بإنتاج تربويّ ملائم، أنطاكيّ الجذور والنَفَس.

فما هو الوجه العمليّ الذي يجعلني أقول إن للبطريرك إغناطيوس خصوصيّة في التربية تذهب إلى آفاق جديدة؟ ما الأمر الذي هو أبعد من المؤسّسات والكتب الذي جعل منه معلّمًا في أنطاكية؟ هل من معطيات تؤكّد ذلك؟

الجدليّة بين التربية والإناسة

قبل الإجابة على هذه التساؤلات أسمح لنفسي بأن أعرّج بعُجالة على أمر يشكّل قاعدة العمل التربويّ بمعناه الحديث والأجدّ، ألا وهو العلاقة الجدليّة بين التربية والإناسة والتي بسببها لا يمكنك أن تفصل بينهما. تكمن الخلفيّة المعرفيّة لكل عمل ذهنيّ في تكامل شخص الإنسان ووحدة مكوّناته، إذ إن عقل الإنسان لا ينفصل عن خبرته الاجتماعيّة وعن ظروف نمائه.عندما يتكلّم اللاهوت المشرقي عن وحدة الإنسان ويرفض رفضًا قاطعًا تجزئته يكون بذلك سبّاقًا في ما آلت إليه العلوم الإنسانيّة المعاصرة.

[١] أُلقيت في مؤتمر *البطريرك إغناطيوس الرابع: الإنسان وميراثه*، من تنظيم بطريركية أنطاكية وسائر المشرق، في دير سيّدة البلمند، لبنان

لذلك لا نتكلّم اليوم عن التربية بمعنى أنها تنمية للعقل وللمعلومات، بل نعتبر أن هدفها الأساس هو تنمية شخص المتعلّم وطاقاته الذهنيّة، والتواصليّة، والعاطفيّة.

بهذا المعنى تأتي التربية الحديثة، بسياق التراث المشرقي الذي تُرْجِم بإناسة خاصّة به، لكننا لم نُدْرِك دومًا، نحن المشارقة، أهميتها وأبعادها. كلّ دارس لتطوّر المقاربات التربويّة في الغرب، والتي استقيناها في أساليب تعاطينا التربويّ اليوم، يعي تخبّط المدارس التربويّة حتى الربع الأخير من القرن الماضي حين ساهمت المقاربة المعرفيّة بإعادة اكتشاف اللحمة الداخليّة للإنسان. فمع حفظ الاعتبار لكلّ مكوّنة من مكوّناته، وأهميّة دورها التربويّ والعلائقيّ، قالت المدرسة المعرفيّة بالتناغم بين التربية والإناسة، بين عمليّة تأهيل الشخص، وتفاعله المجتمعيّ، بين نموّه الجسديّ ونمائه الذهنيّ.

أدرك هذا الأمر قلائل في القرن الماضي حتى في مجال التربيّة بمعناها العام،ووعته مجموعة عزيزة في الكنيسة، خطّ أعضاؤهامن حيث لا يدرون، لتنشئة في المسيح تعتمد مقاربة جديدة في الشكل، تراثيّة في المضمون؛ وكان البطريرك إغناطيوس من هؤلاء.

الجدليّة التصاعديّة عند إغناطيوس الرابع

يكمن السبب في اعتماد إغناطيوس الرابع هذا النهج التربوي في الأساس اللاهوتيّ العميقلفكره والذي تلخّصه الكلمة المفتاح التالية: "التجسّد". وعيُ البطريرك إغناطيوس الوجودي لأبعاد التجسّد هو المدخل الأساس لفهم ما جاء في منحاه التربويّ. السؤال الذي طالما تحدّى به سامعيه كان دومًا: أين التجسّد من هذا الكلام؟ أين التجسّد في هذا العمل؟ لذلك نجد عند التأمّل في المخزون التربويّ الجامع لما قاله أو كتبه حركة تصاعديّة تأخذ الكون بكلّيتهبدون أن تنسى جزئيّاته. من المهمّ جدًّا أن يقرأ المرء الوجه التربويّ والإناسيّ عند البطريرك إغناطيوس ككلّ لكي يستطيع أن يتلمّس هذا المسعى لرفع الإنسان إلى علو كجزء من العمليّة الخلاصيّة التي هي سبب التجسّد وهدفه. لن أذهب في هذه المداخلة الموجزة إلى تحليل نصوص لإغناطيوس الرابع تدلّ على ما أقول، مع أن لتحليل كهذا أن يظهر الأبعاد اللاهوتيّة لفكره. لكن سيقوم غيري بذلك في جلسات المؤتمر المتتالية. لكنني سأكتفي بعرض خلاصات تجلّى فيها فكره التربويّ الممزوج برؤية إناسيّة واضحة وهي: الخليقة، والإنسان، والعائلة.

أبدأ بالخليقة لأنها، حسب البطريرك إغناطيوس، عمل الله الملموس، والله لا يقدم على السيّء. والخليقة هي مجال ممارسة الإنسان لإنسانيته، وهي إذًا مكان عيشه لحقيقة التجسّد. فاحترام الإنسان للخليقة جزء لا يتجزأ من تعامله مع الألوهة. لذلك كان يربط دومًا كلامه عن الخليقة بكلامه عن القيامة،

وعن معنى هذه وتلك بالنسبة للإنسان المؤمن. صلاح الخليقة ومسؤوليّة حفاظ الإنسان عليه هما إطار الإناسة المستقيمة الرأي: فلا ازدراء بل احترام، ولا ترفّع بل خدمة. هذا هو الإطار التربويّ الذي لم يحد إغناطيوس الرابع عنه. في هذا الإطار، الإنسان مسؤول، ومسؤوليته جزء لا يتجزّأ من محبة الله له. وهذا يعني أن الإنسان يحاسب ضمن هذا الجو حيث المحبّة والمسؤوليّة تسيران معًا، ولا معنى للواحدة من دون الأخرى. رواية الخلق كلُّها، بالنسبة له تختصر في هذا.

أمّا الإنسان، وهو المخلوق على صورة الله ومثاله،فلفت البطريرك في تعليمه إلى أنّه محبوب ومخلّص، وإلى أنّنا مدعوون لوعي ذلك في تعاملنا مع كلّ معطى إنسانيّ. ولذلك كان ينزعج من التعليم الذي يشدد على الخطيئة وليس على الرحمة، على الحزن وليس على الفرح. لكن، وفي الوقت عينه، وبسبب هذه الرؤية الإناسيّة التي تتجلّى فيها محبة الله للإنسان، جعل من العلاقة مع الآخر المحكّ التربويّ لتنشئة المرء في المسيح.من هنا كانت مقولته "إن الآخر هو المرآة التي تلاحظ نفسك فيها". هذا هو الحِراك العلائقيّ الذي يجعل من المقاربة التربويّة للبطريرك إغناطيوس مقاربة ديناميّة وليست مقاربة ذهنيّة. الوعي بوجود الآخر يعني الخروج من الأنا لعيش وحدة تكامليّة مع الغير، تتعرّف فيها على معنى التواضع، وتختبر حلاوة التضحية، وتترجم المحبة الرحومة في الواقع المعيوش. هذه التربية على ديناميّة المحبة هي ترجمة معنى التجسّد في إناسة مشرقيّة المنحى، لذلك كان يشدّد على مفهومين اساسيين:

- الوحدة كنتاج حتميّ لتجسيد المحبة وحقيقة القيامة، وكمحكّ لمصداقيّة العلاقة القائمة على قبول الغير والتواصل الدائم معه.
- والحرّية كونها الطاقة التي خصّ بها الله الإنسان ليعبّر عن نفسه، وعن خصوصيّة كل شخص في تحمّل مسؤوليته في العالم تجاه خالقه.

أخيرًا وليس آخرًا، كان الكلام الدائم عند غبطته عن العائلة كنموذج. فإلى جانب تعليمه عن الخليقة والإنسان، كان يشدّد على ضرورة إعطاء نموذج حيٍّ عن ماهيّة الكنيسة، وذلك في صورة العائلة. بالنسبة له، هذه الصورة تختصر معنى السلطة المحِبَّة، والارتباط المصيريّ، والنمو المضطرد، وممارسة المسؤولية، واكتشاف متدرّج للشركويّة. كانت الموازاة بين الكنيسة والعائلة مناسبة لربط نموذج لاهوتيّ هو الكنيسة، بنموذج إنسانيّ هو العائلة. تكمن قوّة تعليم البطريرك إغناطيوس هنا في قدرته على إعطاء البُعْد التربويّ لتنشئة المؤمن في المسيح، حقيقة وجوديّة في خبرة حياتيّة يتذوقها كل آدميّ. الإناسة التي وعاها البطريرك كمشرقيّ هي إناسة تقوم على وجدانيّة العلاقة وعلى القدرة على الارتقاء بها إلى ملء قامة

المسيح.ففي جسد المسيح كلّ مؤمن مدعوّ أن يتذوّق حلاوة البنوّة، ويتحضّر لمسؤوليّة الأبوّة–الأمومة، ويستحضر في عيشه معنى كون الكنيسة "جسد" المسيح، أيّ عائلته كما دعاها المسيح نفسه.

بهذه الأسس التربويّة الثلاثة، أستدل أن البطريرك إغناطيوس عمل بمبدأ الجدليّة التصاعديّة في طرح إطار تربويّ واضح هو الخليقة المعَنْصرة، واعتماد سيرورة تربويّة هي العلاقة بالآخر القائمة على التجسّد، وإعطاء نموذج حيّ للسلوك هو العائلة – الكنيسة. يبقى السؤال: كيف عبّر البطريرك عن هذه الأمور، رغم صعوبتها وتعقيداتها؟

التعبير التربويّ بين الشكل والمضمون

خطّ البطريرك إغناطيوس لنفسه نسقًا تربويًا دقيقًا للغاية إذ كان يخفي نفسه تمامًا وراء هدف العمليّة التربويّة،أي المؤمن،لأن التربيةجزء من مهامه الكهنوتيّة. فبعكس العديد من الوعّاظ، ومن اللاهوتيين، آثر اعتبار الشكل والمضمون وحدة متكاملة فلا يطغى الشكل على المضمون بل يكون في خدمته، ويبقى المضمون في بساطته وكثافته في متناول السامع.فالعظات (وهي تشكّل الجزء الكبير من إنتاجه التعليميّ المباشر) تتصف بمحدوديّة زمنيّة لا تُرهق المصلّي، وبمحوريّة فكرة واحدة لكلّ منها. رافقه هذا الهاجس التربويّ في كلّ مسيرته الكهنوتيّة، ولم يحد عن هذا النمط التربويّ لإدراكه الكامل أن المؤمن هو هدف العمليّة التربويّة وأنه عليه، كمعلّم، أن يحترم هذه الأولويّة مهما كان الثمن. كيف لنا إذًا أن نكتشف هذه الوحدة التربويّة التي ذكرت؟

الطبيعيّ أن يفتّش الباحث عن الأمور التي ذكرت في ما نُشِر للبطريرك من عظات، ومقالات، وهو سيجدها حتمًا كقاسم مشترك لمحتوى الكمّ الكبير من الكتب التي صدرت عنه. لم يكتب إغناطيوس الرابع كُتُبًا بالمعنى الأكاديميّ للكلمة، نجد فيها عرضًا، ودفاعًا عن فكرة معيّنة أو أنظومة لاهوتية متكاملة. لم يكن ذلك همّه. طبعًا ورد في محاضراته وخطاباته التي ألقاها هنا وهنالك في العالم ما يعطي فكرة واضحة عن مواقفه اللاهوتيّة والتعليميّة. لكن ما جعلنا نلج وحدة هذا الفكر هو جلسات النقاش الحرّ والمفتوح التي كانت الفرصة ليسترسل في إظهار هذا التراص في مضمون تعليمه، وهذا ما سعيت إلى عرضه.

الخلاصة

مع مرور الزمن، ونضوج فكرنا اللاهوتيّ، نحن الذين رافقنا البطريرك إغناطيوس الرابع لسنين طويلة، وتتلمذنا على يديه في أكثر من اتجاه، وعينا ما يلي:

- عمق الفكرة لا يتنافى وبساطة عرضها،
- الشكل هو بأهميّة المضمون، وعلى المربي أن يتعب ليصل إلى إقامة التناغم بينهما،
- محبة الله للإنسان، والتي هي في اساس التجسّد الإلهي، هي محور كل تعليم مستقيم الرأي،
- على المربّي أن يعرف كيف يميّز الهام من الأهم في تنشئة المؤمنين في المسيح،
- الرؤية الشاملة ضروريّة كي لا يقع المربّي في تفصيل يلهيه عمّا هو أساسيّ في مدّ البشرى الخلاصيّة ليس فقط للمؤمنين بل للعالم.

وماذا بعد؟

كيف نعبّر اليوم عن مسؤوليتنا في مدّ هذا الفكر التربويّ الفذّ؟ ماذا لنا أن نفعل كي نعطي هذه الخصوصيّة، التي كان إغناطيوس الرابع رائدها، ترجمةً في واقعنا الكنسيّ؟

كانت وصيّة البطريرك، وقد سُمِعت منه مرارًا، أن ألّفوا وانشروا فكرًا مستقيمًا لكلّ الأجيال. اكتبوا عن بساطة إيماننا وعن أبعاده التجسّديّة، وعن الحياة وليس فقط عن العقل. ستتطلّب هذه الأمور جهدًا كبيرًا منّا جميعًا، ولنا اليوم، في صفوفنا الكنسيّة، ما يكفي من طاقات لنلبّي هذه الوصيّة.

فهل نفعل أمانةً منّا لمن ساهم في إنشائنا في المسيح؟

والسلام.